كمال عمار والتلقائية الشعرية

ينتمى الشـاعر المصـرى كمال عمار إلى الموجـة الثانية فى حركة الشعر الحديث وهى الموجة التى تفتح عطاؤها ونضج وإن لم يكتمل فى عقد السـتينيات وكانت بداياته الشعرية فى أوائل الخمسينيات ولكنها كانت ساذجة حائرة بين العامية والفصحى ترتكز على نوع من السخرية السـوداء ولكنها لم تمثل نهجا تجديديا يرشـحه للانضمام إلى الموجة الأولى من هذه المدرسة.

ولد كمال عمار عام ١٩٣١م وتلقى تعليمه فى الأزهر الشـريف وعمل بالصحافة وكانت اللغـة العامية تجتذبه فكتب كثيرا من الأغانى وربما امتصت هذه الأغانى رحيقه الشعرى فجاء نتاجه دون توقعات المعجبين به والذين رأوا فى ومضاته الشـعرية بشـيرا بنهـار كامل ولكن تجربته خلال الثلاثين عاما الماضية قدمت لنا ثلاثة دواوين شعرية هى: «أنهار الملـح» ١٩٦٨م و«صياد الوهم» عام ١٩٧١م و«مـن علمك الحكمة يا..» عام ١٩٨٢م وقد فاز هذا الديوان بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٤م.

تكتسب التجربة الشعرية لكمال عمار خصوصية تدل على موهبة أصيلة تنهل من فيض عميق من الحساسية والحميمية والاقتراب الشديد من مناخ التراث سـواء أتمثل هذا التراث فى الكتب المقدسة التى يولع بالاقتباس منها وتمثل روحها أم فى الفلكلور الشـعبى وأول ما نلمحه فى خصوصية أسـلوبه الفنى فى قصائده هو اللغة البسـيطة السهلة المركزة التى ترجع

مصادرها الأساسية إلى الواقع ببعديه النفسى والاجتماعى وإلى قراءات شائعة فى كتب الحكمة التقليدية. وهى لغة أقرب إلى لغة المسرح فهى لا تطمع إلى الجلال الذى تنشده الكلاسيكية ولا إلى الجمال الذى تهدف إليه الرومانسية وإنما هى لغة وسطى بين الفصحى والعامية بين لغة الكتب التقليدية والصحافة ويمثل التركيز الشديد أحد ملامحه الفنية خاصة فى ديوانه الأول «أنهار الملح» الذى يمثل ذروة تجربته الشعرية من حيث الكثافة وبراعة التصوير والنفاذ والرؤية الإبداعية. أما الملمح الرئيسى الثالث فهو الجمل القصيرة والحوار وهى عناصر يوظفها الشاعر لخلق موقف قائم على الجدل والمفارقة داخل قصائده. تدل هذه الدواوين الثلاثة على طبع شعرى لا يطمح إلى بناء هياكل فنية شاهقة ولكنه يمثل الاستجابة الشعرية المفرطة الحساسية لموقف ذى مغزى من مواقف الحب أو الحزن أو الشوق إلى الحرية أو العدل أو التواصل الإنسانى. وقصائده يتبدى فيها الصراع الخفى الحاد بين شخصيات تفصلها فروق اجتماعية أو نفسية وقلما يلجأ الشاعر إلى تصوير الطبيعة بمعزل عن هذا الصراع الذى يقع بين الذوات المتصادمة أو فى داخل نفسه أو محيطه الاجتماعى. وتتجلى شاعريته فى اختبارات فنية خارج الذات مثل قصيدة الصحراء فى ديوانه «أنهار الملح» والتى يقول فيها:

الليل بئر أسود غطاؤه النجوم
تلمع فى استحياء
كأنها عيون عاشق صغير
والريح فى الصحراء قطة تزوم

تبحث عن أليفها القديم
تقلب الرمال بالأصابع الخفية
تشم كل ذرة قصية
وتيأس الرياح من طوافها الحزين
فتستكين
وفجأة تدور باندفاع
فى رقصة محمومة الوداع
وبعدها ينام كل شىء
حتى النجوم فى مشارق الأفق
لم يبق إلا ساعة والليل يحترق
ويطلع النهار
ملتحفا عباءة من نار

إن هــذه الطبيعة المفعمة بالســخونة والمليئة بالأســرار ذات دلالة رمزية قوية على وجدان غارق فى الحزن يراوده بصيص من الأمل الذى تصوره النجوم وكأنها عيون عاشــق صغير حيث يوحى الشــاعر لنا بأن الحب والطفولة همــا النور الوحيد المحتمل الذى يمكن أن يرفرف فوق بئــر الليل فى الوقت الذى تدل الريح على الوحدة واعتصار النفس بحثا عــن أليف فى رحلة الحياة ولكنها تعجز فتســتدير مودعة وكأن الموت الذى يتجلى فى النوم الذى يشــمل كل شــىء هو المصير المحتوم لهذه الريــح القلقة الحزينة ولكن النهار يشــتعل فجــأة ملتحفا عباءة من نار وهذه القصيدة من أشــد البراهين على شــاعرية كمــال عمار ولكنها فى الوقت نفســه من أندر التجارب فى دواوينه الثلاثة. ولا نستطيع كذلك

أن نبتعــد عن صورة الغــراب لإدجار آلان بو ونحن نقرأ قصيدة الحصار الذى يقول فيها:

ونام طائر الأحزان فى دمى
وفى أوان الفقس دق الباب
طير كبير الرأس أزغب البدن
حدق فى لحظتين من زمن
وأرعش الجناح ثم طار
وصاح بى ورددت صياحه الأشجار
أنكرتنى وظلمة المساء تملأ الأفق
يا طائر الأحزان كيف عشت فى دمى ولم أرك
كيف استطعت أن تجوب غورى الدفين
وكل ما بداخلى شرك
وذلك النواح كله لمن
إن كان لى أنا نسيت لوعة الغناء
يا أصدقاء
لا تتركونى لحظة المساء
قولوا له يكف عن غنائه الحزين

إن طعــم الخديعــة وخيبة الأمل وصدمــة القلب التــواق إلى الفرح وانهيــار صورة المثال هى ركائز التجربة الشــعرية فى الدواوين الثلاثة للشــاعر كمال عمار ولكــن التعبير يتفاوت من ديــوان لآخر. فنحن فى «أنهار الملح» أمام مواقف بالغة المرارة تتسم بالدرامية ولكنها تعبر رغم ذلك عن تلقائية شــعرية وعفوية فى الدفقة الشــعرية. نوع من الانفجار

الفطرى لمشاعر عاجزة عن مواجهة واقع بالغ التعقيد تلعب فيه المناورة والمكيدة والأقنعة دورا رئيسيا فى النجاح والفشل على حد سواء فالحب ينهار بمجرد سقوط الأقنعة والصداقة وهم والأحزان هى الحليف الوحيد ويحاول الشـــاعر أن يختزل هذه الرؤية فى نزعة تأملية أو صوفية تتبنى فى مضمونها رســـالة أخلاقية فيلجأ إلى نوع من الخطاب الشعرى الذى يتسربل بالحكمة فنراه يقول فى قصيدة «ثرثرة رجل منفرد» :

تسألنى ما بال حديقتنا
كفت هذا العام عن الإثمار
والظل ارتد وأضحى مثل النجم السيار
قاص وقريب
تسألنى حسنا سأجيب
حتى لو كان القول يسوء
ذلك أنا صلينا من غير وضوء
وزعمنا أنا أطهر من حبات الثلج
وكذبنا حتى صارت أعيننا دون جفون
حتى لما رحنا نسعى للحج
صرنا نخدع ملاح الزورق
حتى لا نعطيه الدينار
تسألنى ما بال حديقتنا
كفت هذا العام عن الإثمار
ذلك لا يدهشنى
حتى لو أنبتت الأحجار

ويأتى ديوانه «صياد الوهم» امتدادا لروح الفاجعة الصغيرة التى تسود ديوانــه الأول ولكنــه يميل إلى نوع مــن الافتعال مما يــؤدى إلى لون من الضعف الفنى. وتشــيع فيه هذه النثرية التى كانت تفتقد شــاعرية الموقف بحيث تتهافت التجربة بين حدود الشعر والنثر. وتتسع الرؤية الموضوعيــة فى ديوانه الثالث «من علمك الحكمة يا...» وهنا تكتســب قصائــده نوعا من الغنائية وهو يقترب مــن الهموم الوطنية التى يطعمها بالحس التاريخى والإشــارات إلى نماذج من الأبطال والفرسان وشواهد من المكان القديم وروح الفتوحات الأولى يقترب الشاعر من نهار الواقع بكل ما يضج به من زحام وفوضى وضجيج وموســيقية ولكنه يتخلى عن عالم الظلام الملئ بالدلالات والرموز والاحتمالات لتصبح القصيدة إفضاء تلقائيا خاليا من مراوغة الفن وحيله ولكن هذه الدواوين تظل شاهدا على شــاعرية أقرب إلى الطبع والتلقائية الشعرية من أعمال الصنعة وتكلف الأشــكال الحديثة وبهذا يكتسب الشــاعر كمال عمار خصوصيته داخل جيله من شعراء الستينيات.

❑❑❑